الفصل الثالث

النظم الإدارية

- النظام الإدارى فى المدينة.
- الدواوين فى عصر الفاروق عمر رضى الله عنه.
- الدواوين فى العصر الأموى.
- الدواوين فى العصر العباسى.

النظام الإدارى فى المدينة

أرسى الرسول ﷺ فى المدينة عاصمة الدولة الإسلامية أسس النظام الإدارى فى الإسلام، باعتباره جزءا أساسيا مكملا لنظام الدولة، ويمكن أن يستنبط من المادة التاريخية التى تقدمها المصادر الإسلامية أن رسول الله ﷺ وضع اللبنات الأولى لجهاز إدارى منظم استعان برجاله فى إدارة أمور المسلمين.

وكان رسول الله ﷺ يستعين بمجلس للشورى، كما كان يتخذ كتابا للمراسلات بينه وبين الملوك والحكام المجاورين، فقد كان عبد الله بن الأرقم يجيب على الملوك والرسل، وكان له كاتب للعهود هو على بن أبى طالب كرم الله وجهه، كما كان له صاحب سر هو حذيفة بن اليمان، واتخذ قائما على خاتمه، وتسمى المصادر الحارث ابن عوف المرى، كما تذكر أيضا أن رسول الله ﷺ كان يضع على خاتمه الربيع بن صيفى ابن أخى أكثم.

واتخذ رسول الله ﷺ من يقوم على المداينات، وكان له ترجمان بالفارسية والقبطية والرومية هو زيد بن ثابت، وقيل: إنه كان يترجم أيضا من الحبشية والعبرية. كما أن رسول الله ﷺ استعمل ولاة فى شبه الجزيرة العربية منهم عتاب بن أسيد الذى استعمله على مكة، ومعاذ بن جبل الذى أرسله قاضيا على اليمن.

وقد بعث الرسول ﷺ رسله وسفراءه إلى الملوك، فأرسل حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى، ودحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر، وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى، وبعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى[1].

وكان للدولة الإسلامية ميزانيتها، أودعها بيت مال المسلمين رغم بساطة تلك الميزانية، وكان الفىء يقسم على المسلمين حاضرى المواقع، ومن المهم الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ أراد إحصاء الناس تمهيدا لإنشاء الديوان إلا أنه لم ينشأ إلا فى عصر الفاروق عمر رضى الله عنه.

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك. جـ٢ ص٦٤٤.

ورغم البساطة التى تتسم بها الإدارة الإسلامية فى عهد رسول الله ﷺ، إلا أنها وضعت للمجتمع الإسلامى نواة التنظيم الإدارى الذى سار عليه الخلفاء الراشدون الذين أضافوا إلى هذا التنظيم ما وجدوه ضروريا، وما أملته ظروف حياتهم وما اجتهدوا فيه من أجل خدمة مصالح الأمة.

أما النظام الإدارى للدولة الإسلامية فى عهد الصديق رضى الله عنه فهو امتداد للنظام الإدارى فى عهد النبوة، إلا أن بعض عمال رسول الله ﷺ أبوا أن يعملوا لغيره. ومع ذلك فقد سار الصديق على النهج الذى عايشه فى عصر النبوة، كما اتخذ الفاروق وعثمان بن عفان رضى الله عنهما وزيرين له، وتولى له الفاروق عمر رضى الله عنه- بالإضافة إلى ذلك- القضاء، وقام أبو عبيدة بن الجراح على المال.

أما مجلس شوراه فكان يتكون من الفاروق عمر، وذى النورين عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، ومن بينهم كان عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت يكتبان له.

وولى الصديق رضى الله عنه العمال على الأقاليم والبلدان داخل شبه الجزيرة وخارجها: فكان عتاب بن أسيد واليا على مكة وعثمان بن أبى العاص على الطائف والمهاجر بن أمية على صنعاء، وزياد بن لبيد على حضرموت، ويعلى بن أمية على خولان، والعلاء بن ثور الحضرمى على زبيد ورمع، ومعاذ بن جبل على الجند، وعبد الله بن ثور على جرش.

وكانت أجناد الإسلام فى عهده فى الشام، وقوادهم: أبو عبيدة بن الجراح، وعمرو ابن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبى سفيان.

وقواد المسلمين فى العراق عياض بن غنم الفهرى، وكان خالد بن الوليد القائد العام على جميع الأجناد.

وفى عصر الفاروق رضى الله عنه شهد النظام الإدارى نقلة حضارية كبرى تمثلت فى مدى اهتمام الخليفة وعنايته الفائقة بالنظم الإدارية، ففى عهده رسخت التقاليد الإدارية الإسلامية. ويقول الطبرى: فى هذه السنة ١٥هـ/ ٦٣٦م فرض عمر للمسلمين

الفـروض ودون الدواويـن، وأعطى العطايا على السـابقة[1]. وهذا يؤكد مرونة العقلية الإسلامية وقبولها لتطوير نفسها، وتمثل هذا فى اهتمام الفاروق رضى الله عنه بتنظيم الدولة الإسـلامية إداريا، وخاصة أن الفتوحات الإسـلامية قد أدت إلى امتداد رقعة الدولة الإسـلامية فى عهده، ففصل السـلطة التنفيذية عن السلطة التشريعية، وأكد استقلال القضاء، كما اهتم بأمر الأمصار والأقاليم، ووطد العلاقة بين العاصمة المركزية والولاة والعمال فى أجزاء الدولة الإسلامية.

وكان عمر رضى الله عنه شديدا مع عمال الدولة الإسلامية، كان يوصيهم بأهالى الأقاليـم خيرا، فيروى الطبرى: أن عمر بـن الخطاب رضى الله عنه خطب الناس يوم الجمعة فقال: اللهم إنى أشـهدك على أمراء الأمصار، إنى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم، وأن يقسموا فيهم فيئهم، وأن يعدلوا؛ فإن أشكل عليهم شـىء رفعـوه إلىّ وقد حفظ لنا يحيى بن آدم وصية الفـاروق رضى الله عنه للخليفة من بعده، تلك الوصية التى تلخص حرص إمام المسـلمين على صالح الرعية يقول: «أوصى الخليفة من بعدى بأهل الأمصار خيرا فإنهم حياة المال، وغيظ العدو، ورده المسـلمين، وأن يقسـم بينهم فيئهم بالعدل وألا يحمل مـن عندهم فضل إلا بطيب أنفسهم»[2].

وكان رضى الله عنه إذا استعمل العمال على الأقاليم خرج معهم يشيعهم ويوصيهم، فيقول: إنى لم أسـتعملكم على أشـعارهم ولا على أبشـارهم، وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة، وتقضوا بينهم بالحق، وتقسـموا بالعدل، وإنى لم أسـلطكم على أبشارهم ولا أشعارهم، ولا تجلدوا العرب فتذلوها، ولا تجمروها فتفتنوها، ولا تغفلوا عنهـا فتحرموهـا، جردوا القرآن، وأقلوا عن رواية محمد ﷺ، وانا شـريككم. وكان يقتص من عماله، فإذا شكا إليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه فإن صح عليه أمر يجب أخذه به[3].

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك. جـ٣ ص٦١٣.

(٢) يحيى بن آدم. كتاب الخراج ص٦٧.

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك. جـ٤ ص٢٠٤.

وروى الطبرى أن الفاروق رضى الله عنه خطب الناس فقال: «أيها الناس، إنى والله ما أرسل عمالا ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلىّ، فوالذى نفس عمر بيده لأقتصن منه، فوثب عمرو بن العاص، فقال: يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته، إنك لتقصنه منه! قال: إى والذى نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه، وكيف لا أقصنه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه[1].

وكان رضى الله عنه إذا استعمل عاملا كتب له عهدا وأشهد عليه رهطا من المهاجرين والأنصار، واشترط عليه ألا يركب برذونا، ولا يأكل نقيا، ولا يلبس رقيقا، ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس[2].

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه هو أول من وضع التأريخ وكتبه وذلك فى العام السادس عشر للهجرة، كما أنه أول من وضع تقليدا بتأريخ الكتب والرسائل وختم بالطين. وهو أول من جمع الناس على إمام لصلاة التراويح فى شهر رمضان وكتب بذلك إلى البلدان، وكان فى العام الرابع عشر للهجرة قد اتخذ قارئين: قارئا يصلى بالرجال، وقارئا يصلى بالنساء، وكان أول من حمل الدرة وضرب بها تأديبا، ومن ذلك ما فعله مع سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وكان الفاروق يوزع مالا أتاه بين المسلمين، فرأى سعد يزاحم الناس حتى خلص إليه، فعلاه عمر بالدرة وقال: إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك[3].

وشهد عصره بالإضافة إلى ذلك تنظيمات إدارية متنوعة فوضع أساس بيت المال ونظم أموره، وكان يعس ليلا ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم بيديه، وكان يراقب المدينة ويحرسها من اللصوص والسراق، كما كان يراقب أسواق المدينة ويقضى بين الناس حيث أدركه الخصوم، وهو فى هذا كله يتأسى بسنة رسول الله ﷺ.

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك. جـ٤ ص٢٠٤.

(٢) المصدر ذاته: جـ٤ ص ص٢٠٧، ٢٠٨.

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل. جـ٤ ص٢١٢.

فقد كان يقول: القوة فى العمل ألا تؤخر عمل اليوم إلى الغد، والأمانة ألا تخالف سريرة علانية، واتقوا الله عز وجل فإنما التقوى بالتوقى ومن يتق الله يقه.

وفى عصر عثمان بن عفان رضى الله عنه شهدت المدينة تطورات إدارية محدودة وإن كانت على درجة من الأهمية، فقد تحول العسس الذى كان فى العهود السابقة إلى نظام له أصول وقواعد ومهام محددة هو نظام الشرطة، ومع ذلك يمكن القول أن الأوضاع الإدارية سارت على ما كانت عليه فى عهد الفاروق، وربما يرجع السبب فى محدودية الإضافة للنظم الإدارية فى المدينة إلى اضطراب الأقاليم والظروف السياسية التى مرت بها الدولة الإسلامية مما عاق خليفة المسلمين عن إحداث تطورات جذرية فيها بشكل يتناسب مع المدة التى قضاها ذو النورين خليفة للمسلمين.

وكذلك كانت الأحوال فى عصر على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وقد كان شديدا فى الحق، يعدل فى الرعية، وعرف عنه أنه كان يقسم ما فى بيت المال لا يترك فيه شيئا، من ذلك ما فعل بعد بيعة أهل البصرة حيث نظر فى بيت مالها فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة، فقسمها على من شهد معه الوقعة[1].

ويمكن أن نستنبط من خطب على كرم الله وجهه نظمه الإدارية وأوامره وتوجيهاته لعمال الأقاليم. فمن خطبه فى أهل المدينة: إن الله عز وجل بعث رسولا هاديا مهديا بكتاب ناطق، وأمر قائم واضح، ولا يهلك عنه إلا هالك، وأن المبتدعات والشبهات من المهلكات إلا من حفظ الله، وأن فى سلطان الله عصمة أمركم فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها، والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبدا حتى يأرز الأمر إليها. انهضوا إلى هؤلاء القوم الذى يريدون أن يفرقوا جماعتكم، لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق، وتقضون الذى عليكم[2].

ففى سنة ست وثلاثين فرق على كرم الله وجهه عماله على الأقاليم فبعث عثمان ابن حنيف على البصرة، وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن، وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام لكنه لم يصل إلى الشام

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك. جـ٤ ص٥٤١.

(٢) نفس المصدر والجزء. ص٥٤٤.

وعـاد إلى المدينـة التى اختلطت فيها الأمور، وخاصـة أن ولاة عثمان فى البلدان قد تأثـروا بمقتلـه، من ذلك موقف عبد الله بن عامر أمير مكة الذى ذهب إلى أم المؤمنين عائشة وكانت حين قتل عثمان رضى الله عنه فى مكة تؤدى عمرة المحرم، فلما أتاها عبد الله سألها: ما الذى ردك يا أم المؤمنين، وكانت فى طريقها إلى المدينة، فقالت: ردنـى أن عثمان قتل مظلوما، وأن الأمر لا يسـتقيم ولهـذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام. فكان أول من أجابها عبد الله بن عامر[1].

ويروى الطبرى فى أخبار سنة تسع وثلاثين للهجرة: كان عبد الله بن عباس يلى البصرة لعلى بن أبى طالب فكان يقوم على الصدقات والجند.

ويروى محمد بن جرير الطبرى فى أخبار سـنة تسـع وثلاثين للهجرة يقول: كان واليه على البصرة فى هذه السنة عبد الله بن عباس، وكان يقوم على الصدقات والجند والمعاون أيام ولايته كلها، وكان قضاؤها من قبل على لأبى الأسـود الدؤلى، كما كان عاملـه على البحرين وأقاليمهـا عبيد الله بن عباس، وتولى له على مكة والطائف قثم ابن عباس، وأما واليه على المدينة فكان أبو أيوب الأنصارى، وقيل سهل بن حنيف، وكان خليدة بن قرة اليربوعى عامله على خراسـان، وكانت بلاد الشام تحت سيطرة معاوية بن أبى سـفيان الذى امتد نفوذه إلى مصر، لكن عمال على بن أبى طالب كرم الله وجهـه وصلوا إليها، فكان قيس بن سـعد الـذى دخلها متنكرا على أنه من قالة عثمان، وتبعه قيس بن سـعد بن عبادة النصارى وجمع له الصلاة والخراج. ثم وليها الأشـتر مالك بن الحارث بن عبـد يغوث النخعى، فلما قدم مصـر ووصل إلى القلزم استقبل بما يليق من استقبال عمال أمير المؤمنين لكنه شرب شربة عسل فمات[2].

وكتب أمير المؤمنين على كرم الله وجهه للأشتر النخعى حين ولاه حكم مصر كتابا جامعا لأصول السياسـة والإدارة والحكم، وضح فيه الأسـس والقواعد التى يجب أن تحكـم وفقها الأمة، كما وضح لعماله طريقة معاملة أهالى البلاد المفتوحة، وقد تجلت عبقرية الإمام على كرم الله وجهه فى ذلك الخطاب الذى يبين فيه منهجه فى حكم

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك. جـ٤ ص٤٤٥.

(٢) الكندى: كتاب الولاة وكتاب القضاة. ص٢٣

الدولة الإسلامية، ويرسم للمسلمين الطريق التى تربط الحاكم بالمحكومين، كما نصح فيه الحكام والساسة بضرورة الحكم بما أنزل الله تأكيدا لما جاء فى كتاب الله، وعملا بسنة رسول الله ﷺ.

يقـول على بن أبى طالب كرم الله وجهه: بسـم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أقر به عبد الله على أمير المؤمنين، مالك بن الحارث بن الاشتر فى عهده إليه حين ولاه حكم مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمـره بتقوى الله وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به فى كاتبه من فرائضه، وسـننه، التى لا يسـعد أحد إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها واضاعتها، انصف الله، وأنصف الناس من نفسـك ومن خاصة أهلك، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عبـاده، ومن خاصمه الله دحض حجتـه وكان لله حربا حتى ينزع أو يتوب، وليس أدعـى إلى تغيـير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله يسـمع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق، وأعمها فى العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة.

ويستطرد على كرم الله وجهه فى خطابه إلى الأشتر النخعى يقول: إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيرا، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان الأئمـة وإخـوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل أوزارهم.

لا تنتقـض سـنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمـة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية، ولا تحدثن سنة تضر بشىء من ماضى تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها، والوزر عليك بما نقضت.

اعلـم أن الرعية طبقات لا يصـح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها: جنود الله، ومنها: كتاب العامة والخاصة ومنها: قضاة العدل، ومنها: عمال الإنصاف والرفق، ومنها: اهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها: الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة.

وكل قد سمى الله له سهمه، ووضع على حده وفريضته فى كتابه أو سنة نبيه ﷺ وآله عهدا من عندنا محفوظا.

ول جنودك أنصحهم فى نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيبا، وأفضلهم حلما، ممن يبطئ الغضب، ويستريح إلى العفو ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف.

واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب، ويشتبه عليك من الأمور، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ..... ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء] فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة.

انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختبارا، ولا تولهم محاباة وأثرة، وأسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك.

ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية.

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أمره، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله.

وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من تظرك فى استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أضر بالبلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلا.

استوص بالتجار وذوى الصناعات خيرا، وأوص بهم خيرا، المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح، فى برك وبحرك، وسهلك وجبلك حيث لا يلتئم الناس لمواضعها، ولا يجترئون عليها فإنها سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته.

إذا أقمت الصلاة فلا تكونن منفردا ولا مضيعا فإن فى الناس من به العلة، وله الحاجة، وقد سألت رسول الله ﷺ حين وجهنى إلى اليمن كيف أصلى بهم؟ فقال: صل بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيما.

ولا تحتجب عن الرعية فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقله علم بالأمور.

أملك حمية أنفك، وسورة حدك، وسطوة يدك، وغرب لسانك، واحترس من ذلك بكف البادرة، وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك، فتملك الاختيار، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك.

دستور فى الإدارة، والصلة بين الحكومة وولاتها، ودرس لعمال الأقاليم فى أنحاء الدولة الإسلامية، وعظة للقائمين على شئون المسلمين.

وآداب فى إدارة شئون الأمة، وذوق فى التعامل مع الرعية بما يضمن مصالح الكافة، وبما يشمل مصالح العامة والخاصة؛ المسلمين وغير المسلمين ممن يعيشون فى كنف الدولة الإسلامية.

لقد أراد على كرم الله وجهه أن ينهض بأعباء الحكم والسياسة وكانت ضخمة، فالفتنة كانت عامة، والحجاز تضطرم أموره بين من يريد أن يخرج إلى العراق أو إلى الشام وبين من يريد أن يبقى، والأقاليم تحتاج إلى حنكة وتؤدة فى النظر فى أمورها، فانتقل بالعاصمة الإسلامية إلى الكوفة، وهناك أدار الصراع محاولا حقن دماء المسلمين، والقضاء على الفتنة، لكنه استشهد دفاعا عن الحق والمبدأ.

وانتقلت منذ ذلك الحين عاصمة الدولة الإسلامية التى أرسى قواعدها رسول الله ﷺ، وخلفاؤه الراشدون فتنقلت بين دمشق وبغداد والقاهرة.

وتولى الأمويون أمور الأمة الإسلامية وإدارة الأنظمة كلها، وشملوا إدارة الدولة الإسلامية بعنايتهم الفائقة فأدت إلى تطورات هامة فى الأنظمة الإدارية بشكل عام، وإن كانت هناك بعض المآخذ على تاريخ الدولة الأموية فيجب على المؤرخ المنصف أن يضع فى الاعتبار الظروف والملابسات لتى صاحبت تدوين تاريخهم.

ومهما يكن من أمر فإن الباحث المنصف لابد أن يذكر الدور الإيجابى الذى اضطلع به بنو أمية فى تطوير الإدارة، بالإضافة إلى أهمية تلك المرحلة الانتقالية التى أضافت الكثير إلى الانظمة الإدارية الإسلامية.

الدواوين فى عهد الفاروق عمر رضى الله عنه

نشأت الدواوين الإسلامية فى عهد الفاروق عمر رضى الله عنه، وكان ذلك نتيجة لاتساع الدولة الإسلامية، واتصال المسلمين الفاتحين عن قرب بالأنظمة الفارسية والبيزنطية فى الأقاليم والتعرف على حضارتها، فانتقوا من بين ذلك ما وجدوه ملائما وصالحا للاقتباس، كما أبقوا على كثير من الأنظمة الإدارية التى ثبت لهم صلاحيتها لتلك البلاد.

وقد اختلف فى تحديد تاريخ نشأة الديوان، فيحدده الطبرى بالعام الخامس عشر لهجرة، بينما يذكره الماوردى فى العام العشرين[1].

جب الإشارة إلى أن النظم الإدارية فى مصر والشام كان لها أثر كبير فى نشأة ويبدو أن قد عاد الفاتحون إلى العاصمة الإسلامية يحملون معهم أخبار البلاد حة. ومن أهم تلك الأخبار، أخبار النظم الإدارية وبصفة خاصة الدواوين.

والديوان لغة يعنى اسم الشياطين، فسمى الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور، وقوتهم ى الجلى والخفى وجمعهم لما شذ وتفرق، ثم سمى مكان جلوسهم باسمهم فقيل يوان. وقيل أيضا: إنها تعنى السجل أو الدفتر، ثم أطلقت على المكان الذى تحفظ فيه السجلات الخاصة بالدولة. وتتحدث المصادر الإسلامية عن الديوان دون تحديد، ويستطيع الدارس أن يفرق بين العطاء الذى دون له ديوان، وبين ديوان الجيش الذى أفرد له ديوان خاص، وأما الديوان الثالث فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان ديوان الاستيفاء[2].

يقول الإمام أبو الحسن الماوردى: «إن أول من وضع الديوان فى الإسلام هو عمر ابن الخطاب، واختلف الناس فى سبب وضعه، فقال قوم: إن سببه أن أبا هريرة رضى الله عنه قدم عليه من البحرين فقال له عمر: ماذا جئت به؟ فقال: خمسمائة ألف ألف، فاستكثره، فقال له: أتدرى ما تقول؟ قال: نعم مائة ألف خمس مرات.

---

(١) انظر الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص٦١٣، وقارن الماوردى: الأحكام السلطانية. ص١٩٩.

(٢) انظر القلقشندى. صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء. جـ ١٣ ص١٠٦.

فقال عمر: أطيب هو؟ فقال: لا أدرى. فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين: رأيت الأعاجم يدونون لهم ديوانا، فدون أنت لنا ديوانا»[1].

وقال آخرون فى سبب وضع الديوان: إن عمر بعث بعثا وكان الهرمزان فقال لعمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلف منهم رجل، وآجل بمكانه فمن أين يعلم صاحبك به، فأثبت لهم ديوانا، فسأله عن الديوان حتى فسره له[2].

وروى أيضا أن عمر رضى الله عنه استشار المسلمين فى تدوين الدواوين فقال على ابن أبى طالب كرم الله وجهه: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من المال ولا تمسك منه شيئا. وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه: أرى مالا كثيرا يسع الناس فإن لم يحصوا حتى يعلم من أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر، فقال خالد بن الوليد[3]: قد كنت بالشام فرأيت ملوكها دونوا ديوانا وجندوا جندا فدون ديوانا وجند جندا فأخذ بقوله.

ودعا عمر رضى الله عنه عقيل بن أبى طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، كانوا من شبان قريش، وقال اكتبوا الناس على منازلهم.

ديوان العطاء:

كان الفاروق رضى الله عنه حين أراد وضع الديوان قال للصحابة من مستشاريه: بمن نبدأ؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف: ابدأ بنفسك، فقال عمر: أذكر أنى حضرت مع رسول الله ﷺ، وهو يبدأ ببنى هاشم وبنى عبد المطلب. فبدأ بهم عمر ثم بمن يليهم

---

(١) الماوردى. الأحكام السلطنية ص١٩٩.

(٢) الماوردى: نفس المصدر والصفحة. قارن: ضياء الدين الريس: الخراج فى الدولة الإسلامية. ص١٣٤ هامش رقم ٢.

(٣) يبدو أن صحتها الوليد بن هشام بن المغيرة. كما ورد فى الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ٥ ص٢٣. بينما الماوردى وابن خلدون يذكران أنها خالد بن الوليد. المقدمة جـ٢ ص٦١٤. وابن خلدون لا يفصل الحديث عن الدواوين إذ لا يعتبرها من غرض كتابه ص٦١٦.

من قبائل قريش بطنا بعد بطن حتى استوفى جميع قريش ثم انتهى إلى الأنصار، وبدأ برهط سعد بن معاذ من الأوس، ولما استقر الناس فى الديوان على قدر السابقة فى الإسلام، وكان أبو بكر رضى الله عنه قد سوى بين الناس فى العطاء ورفض التفضيل بينهم. وفى هذا يقول أبو يوسف صاحب كتاب الخراج: قدم على أبى بكر رضى الله عنه مال فقال: من كان له عند النبى ﷺ عدة فليأت فأعطى كل إنسان ما كان رسول الله ﷺ قد وعده بشىء، وبقيت من المال بقية فقسمها بين الناس بالسوية على الصغير والكبير والحر والمملوك والذكر والأنثى، فخرج على سبعة دراهم وثلث لكل إنسان. وفى العام التالى جاءه مال كثير فقسمه بين الناس فأصاب كل إنسان عشرين درهما، فجاءه بعض الناس فقالوا: يا خليفة رسول الله، إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس، ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم، فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم، فرد الصديق رضى الله عنه قائلا: أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفنى بذلك، وإنما ذلك شىء ثوابه على الله جل ثناؤه، وهنا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة[1].

أما الفاروق رضى الله عنه فقد وضع أسسا للمفاضلة بين المسلمين فى العطاء انطلاقا من أن من قاتل وهاجر مع رسول الله ﷺ ليس كمن لم يقاتل أو تأخر، وفرض لأهل السوابق والقدم فى الإسلام.

ويذكر ابن سلام: أن عمر حين أردا تدوين الدواوين قال: بمن نبدأ؟ قالوا: ابدأ بنفسك، قال: لا، إن رسول الله ﷺ إمامنا فبرهطه نبدأ ثم الأقرب فالأقرب، وكان هذا بعد أن فتح الله على المسلمين العراق والشام وجبى خراجهما فقال: إنى رأيت أن أفرض العطاء لأهله الذين افتتحوه[2].

أما الأسس التى وضعها الفاروق رضى الله عنه لتثبت أسماء الناس فى الديوان فهى:

---

(١) أبو يوسف: كتاب الخراج. ص٤٥، ٤٦.

(٢) ابن سلام: كتاب الأموال. ص٢٣١.

١ – درجة النسب المتصل برسول الله ﷺ.

٢ – السبق فى الإسلام.

٣ – جهاد الأعداء، ومن ثم كان أهل بدر يتصدرون قائمة العطاء ويليهم فى المكانة من شهد المواقع إلى الحديبية ثم من الحديبية إلى القضاء على المرتدين.

٤ – جعل أهل الفترة الواحدة طبقة واحدة فى العطاء بمعنى أن من شهد المواقع إلى الحديبية مثلا طبقة واحدة.

٥ – فضل أهل الحرب على قدر براعتهم فى القتال.

٦ – البعد والقرب عن أرض العدو، وفضل من قربت داره عمن بعدت داره عن العدو.

وتجدر الإشارة إلى أن العطاء شمل المسلمين، ففرض للنساء والأطفال، وقيل: إن الفاروق رضى الله عنه فكر فى أن يوحد العطاء بين المسلمين عملا بسنة الصديق رضى الله عنه فيجعله فى أربعة آلاف فى العام، ألفا يجعلها الرجل فى أهله، وألفا يتزود بها، وألفا يتجهز بها، وألفا يترفق بها، فمات ولم يفعل.

واستقر الأمر فى العطاء على أن يجعل أهله فى طبقات على قدر مرتبة أهلها فى الإسلام وفرض عطاء ثابتا.

تصدر العباس عم رسول الله ﷺ قوائم العطاء وقيل إنه فرض له خمسة وعشرين ألف درهم فى العام وقيل: بل إنه فرض له أثنى عشر ألف درهم، أو سبعة آلاف درهم، وقيل: خمسة آلاف على اعتبار أنه من أهل بدر[1].

وتأتى بعد ذلك عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حيث تصدرت أمهات المؤمنين إذ فرض لها اثنى عشر ألف درهم، وفرض للباقيات عشرة آلاف درهم إلا جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيى ففرض لهما ستة آلاف، وقيل سوى بينهن.

---

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك. جـ٣ ص٦١٤.

ويلـى ذلك أهل بدر وفرض لهم خمسـة آلاف درهم يتسـاوى فـى ذلك عربيهم ومولاهم، وألحق بهم على بن أبى طالب والحسـن والحسين وأبا ذر الغفارى وسلمان الفارسى.

وفـرض للأنصار أربعة آلاف درهـم، وكان أول أنصارى فرض له هو محمد بن مسـلمة، وفرض لمهاجرة الحبشـة أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعـة آلاف، ثم لمـن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف درهم بسـتوى فى ذلك من شـهد الفتح وقاتل عن أبى بكر، ثم تأتى بعد ذلك طبقة الفاتحين إلى القادسية وأهل الشام فى ألفين.

وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألف درهم. وفرض الفاروق عطاء لنساء المؤمنين اختلف حسـب مرتباتهن فأعطى المهاجرات الأوليات ألفا ونساء أهل بدر خمسمائة، ونساء من بعدهم إلى الحديبية أربعمائة، ومن بعد ذلك فى مائتين، ثم سوى فى العطاء بين نساء المسلمين. وفرض الفاروق للصبيان والأطفال مائتين وقيل: مائة.

العطاء فى عهد الفاروق عمر رضى الله عنه[1]

النسب المتصل من رسول الله ﷺ الرتبة	قيمة العطاء فى العام بالدرهم[2]	المصدر التاريخى
السابقة فى الإسلام.الجهاد:	٢٥٠٠٠ درهم	الطبرى. الرسل والملوك جـ٣ ص٦١٤
العباس بن عبد المطلب	١٢٠٠٠ درهم	أبو يوسف. كتاب الخراج ص٤٧
	٧٠٠٠ درهم	الماوردى. الأحكام ص٢٠١
	٥٠٠٠ درهم	
السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها	١٢٠٠٠ درهم	تتفق المصادر على عطائها
أمهات المؤمنين	١٠٠٠٠	تتفق المصادر على عطائهن
السيدة صفية رضى الله عنها	٦٠٠٠ درهم	قيل أنهما احتجتا على هذا العطاء ففرض لهما.
السيدة جويرية رضى الله عنها	٦٠٠٠ درهم	مثل بقية أمهات المؤمنين فى عشرة آلاف. وتتفق المصادر على هذه الرواية.
البدريون:		
عمر بن الخطاب رضى الله عنه	٥٠٠٠ درهم	تتفق المصادر على ذلك هؤلاء الأربعة ألحقوا بالبدريين
على بن أبى طالب رضى الله عنه	٥٠٠٠ درهم	
عثمان بن عفان رضى الله عنه	٥٠٠٠ درهم	
الحسن بن على رضى الله عنه	٥٠٠٠ درهم	
الحسين بن على رضى الله عنه	٥٠٠٠ درهم	

(١) مصادر القائمة: الطبرى. الرسل والملوك جـ٣. يحيى بن آدم. كتاب الخراج. أبو يوسف. كتاب الخراج. ابن سلام. كتاب الأموال. الماوردى: كتاب الأحكام السلطانية.

(٢) الدرهم الشرعى = كل عشرة دراهم = ستة مثاقيل والمثقال زنته ٧٢ حبة شعير، وكانت الدراهم من التبر. يقول المقريزى: الدرهم لوزنه درهما وهو التبر وكانت زنة كل عشرة دراهم ستة مثاقيل، وقيل: إن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وذلك عام ١٨هـ. انظر المقريزى فى النقود العربية ص٢٨، ٣١، ٣٢، ويقول ابن خلدون: الدرهم الشرعى هو الذى يزن العشرة من سبعة مثاقيل من الذهب والأوقية منه أربعون درهما هو. النقود العربية. ص١٠٧، وقارن: أبو يعلى. الأحكام ص١٧٤، ١٧٥.

(تابع) العطاء فى عهد الفاروق عمر رضى الله عنه

النسب المتصل من رسول الله ﷺ الرتبة	قيمة العطاء فى العام بالدرهم	المصدر التاريخى
الأنصار:		
أبو ذر الغفارى رضى الله عنه	٤٠٠٠ درهم	
(أول أنصارى) محمد بن مسلمة	٤٠٠٠ درهم	
البدريون إلى الحديبية	٤٠٠٠ درهم	
مهاجرة الحبشة	٣٠٠٠ درهم	كتاب الخراج
المهاجرون قبل فتح	٣٠٠٠ درهم	باتفاق المصادر
من الحديبية إلى انتهاء الردة	٢٠٠٠ درهم	
المهاجرون بعد الفتح	٢٠٠٠ درهم	
من شهد الفتح إلى القادسية	١٠٠٠ درهم	
من بعد القادسية واليرموك	٩٠٠ درهم	
طبقة أمراء الأجناد	٨٠٠٠ درهم	
	٧٠٠٠ درهم	
عبد الله بن عمر	٣٠٠٠ درهم	
أسامة بن زيد	٤٠٠٠ درهم	(عطاء الأنصار) أبو يوسف: الخراج ص٤٦
	٤٠٠٠ درهم	
أهل اليمن وقيس بالشام والعراق	٢٠٠٠ درهم	
المهاجرات الأوليات	١٠٠٠ درهم	
نساء المهاجرين والأنصار	٦٠٠، ٤٠٠، ٣٠٠،	
	٢٠٠ درهم وسوى	
	بعد ذلك فى العطاء	
أهل مكة	٨٠٠ درهم	
الرضع	٢٠٠ درهم	الماوردى: الأحكام ص٢٠٢
المنفوس	١٠٠ درهم	

ديوان الجيش :

ارتبطت نشأة ديوان الجيش بتدوين الدواوين أو تسجيل أسماء الجنود؛ وذلك لمواجهة الزيادة التى طرأت على عدد الجنود، وضرورة إحصائهم وترتيب أمورهم وتوفير أعطياتهم، ومن أجل ذلك كان لابد من تخصيص ديوان للجيش، وقد نشأ ديوان الجيش عربيا وتطور مع النظم الإسلامية.

وضع الفاروق رضى الله عنه أسسا للانتظام فى ديوان الجيش يتقدم وفقها أفراد الديوان فى المرتبة والعطاء، وهذه الأسس تتداخل مع الأسس العامة التى يترتب وفقها الناس عند فرض العطاء، إلا أن أفراد هذا الديوان يتعين أن تتوفر فيهم شروط تحدث عنها الفقهاء.

يقول الإمام الماوردى: إن هذا الديوان يختص بالجيش من إثبات وعطاء. أما إثباتهم فى الديوان فتعتبر فيه ثلاثة شروط أولها: الوصف، ثانيها: السبب الذى من أجله يستحق به ترتيبهم، ثالثها: الحال التى يقدر بها عطاؤهم.

أما الشرط الأول: وهو جواز إثباتهم فى الديوان فيجب أن تراعى فيمن يثبت فى الديوان خمسة أوصاف:

١ – البلوغ.

٢ – الحرية.

٣ – الإسلام.

٤ – السلامة من الآفات.

٥ – الإقدام على الحروب ومعرفة القتال.

فإذا تكاملت هذه الأوصاف كان إثباته فى ديوان الجيش موقوفا على الطلب والإيجاب، فيكون منه الطلب، ولولى الأمر الإجابة إذا دعت الحاجة.

الشرط الثانى: يقوم هذا الشرط على أساسين الأول: النسب، وهذا يعنى ترتيب الأسماء حسب قبائلها ومدى قرابتها من رسول الله ﷺ.... والثانى: يقوم على ترتيبهم الواحد بعد الواحد، وفقا لسبقهم فى الإسلام، فإن تكافأوا فبالدين، فإن تكافأوا فبالسن، فإن تقاربوا فتعتبر الشجاعة، فإن تقاربوا فلولى الأمر أن يختار أو يقترع بينهم، وله أيضا أن يجتهد رأيه.

الشـرط الثالث: وهو تقدير العطـاء بالكفاية، والكفاية كما يقـول الماوردى معتبرة على ثلاثة أسس:

١ – عدد من يعول من الذرارى والمماليك.

٢ – عدد ما يرتبطه من الخيل والظهر.

٣ – الموضع الذى يحله من الغلاء والرخص.

ويجوز لبعض أعضاء الديوان أن يستعفى نفسه من الجيش، أما إذا دعت الحاجة إليـه فلا يـؤذن له بذلك. وإذا تخلـف بعض أعضاء الديوان عـن الحرب وهم أكفاء سقطت أرزاقهم.

وكان الانتظام فى ديوان الجيش يعنى بالضرورة الالتزام بشروطه، وهى التفرغ التام للجندية والجهاد دفاعا عن الإسلام. وقد تشدد الفاروق على ضرورة الالتزام بالجندية والتفرغ التام لها حتى لا ينشـغل الجنود بأعمال أخرى كالزراعة مثلا مما يسـتدعى استقرارهم وارتباطهم بالأرض وإهمال أمر الجهاد.

وقد كفلت الدولة الإسلامية تدريب وإمداد الجنود بكل ما يلزمهم، فإذا نفقت دواب الجند فى الحرب كان على الدولة أن تعوضهم عنها، وإذا اسـتهلك الجندى سلاحه عوض عنه، وإذا كف بسفر أعطى نفقة لسفره، ومن الجدير بالإشارة أن الجندى إذا مات أو قتل ورث أبناؤه عطاءه، وهو دين لورثته فى بيت مال المسلمين.

ديوان الاستيفاء:

الأصـل فى نشـأة هذا الديوان حاجـة الدولة إلى إحصاء خـراج البلاد المفتوحة، وتنظيـم الإنفاق فى الوجوه التى يجب الإنفاق فيها، وقد وضحت أهمية هذا الديوان فـى الدولة الإسـلامية حين تعددت مصـادر الدخل وزادت ثروة الدولة وتشـعبت، وجوه الإنفاق.

يقول الماوردى: أما الاستيفاء وجباية الأموال فجرى هذا الأمر فيه بعد ظهور الإسلام بالشـام والعراق على ما كان عليه من قبل، فكان ديوان الشـام بالرومية؛ لأنه كان من ممالـك الروم، وكان ديوان العراق بالفارسـية؛ لأنه كان مـن ممالك الفرس، فلم يزل أمرهما جاريا على ذلك إلى زمن عبد الملك بن مروان فنقل ديوان الشام إلى العربية.

كاتب الديوان :

وكاتب الديوان هو صاحب زمامه، فيجب أن تتوفر فيه العدالة والكفاية، وأما اختصاصاته فهى:

١ – حفظ القوانين.

٢ – استيفاء الحقوق.

٣ – إثبات الرفوع[١].

٤ – محاسبات العمال.

٥ – إخراج الأحوال، ويعنى اشهاد صاحب الديوان على ما يثبت فيه من قوانين وحقوق[٢].

٦ – تصفح الظلامات.

٧ – إخراج الأحوال[٣].

الدواوين فى العصر الأموى :

انتقل الثقل السياسى والإدارى فى عهد الأمويين من المدينة المنورة إلى دمشق، وتحول الاهتمام إلى بلاد الشام التى غدت مقصدا لطلاب العلم وأهل المعرفة.

واهتم خلفاء بنى أمية بالنظم الإدارية اهتماما عظيما وخاصة أنهم كانوا يعيشون فى بلاد الشام بما لها من تقاليد وتنظيمات إدارية عريقة. واستخدم الأمويون رجالا من العرب برعوا فى الإدارة، وأثبتوا كفاءة عالية، من بينهم زياد بن أبيه، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وغيرهم، كما استعانوا بأهل الذمة

---

(١) ما يرفع إلى صاحب الديوان فيما يتعلق برفوع المساحة والعمل، ورفوع القبض والاستيفاء ورفوع الخراج والنفقة.

(٢) الماوردى. الأحكام السلطانية ص٢١٨.

(٣) اشهاد صاحب الديوان على ما يثبت فيه من قوانين وحقوق. الماوردى. الأحكام السلطانية ص ٢١٨.

فـي مصالح الدولة فقد اسـتخدم معاوية سـرجون بن منصور ومـن بعده ابنه فى إدارة الأموال[1].

وزاد عدد الدواوين فى الدولة الأموية عما كان عليه فى عهد الخلفاء الراشـدين، ذلـك أن ضروريـات إدارية تطلبت زيـادة عدد الدواوين، فإلى جانـب ديوان العطاء وديوان الخراج وديوان الجند اسـتحدث معاوية بن أبى سـفيان ديوان الخاتم وديوان البريد وديوان الصدقات وديوان الطراز.

وتذكر المصادر السـبب فى نشـأة ديوان الخاتم إلى أن معاوية بن أبى سـفيان أمر لعمـرو بن زيد بمائة ألف درهم وكتب له بذلـك إلى زياد وهو على العراق ففتح عمرو الكتـاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسـابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه، فأحدث عند ذلك معاوية ديوان الخاتم، وحزم الكتب ولم تكن تحزم، وكان على ديوان الخاتم فى عهد معاوية عبد الله بن محصن الحميرى. ويمكن إرجاع نشأة ذلـك الديوان، بالإضافة إلى حزم الكتـب وختمها إلى احتياطات أمن الدولة بالإضافة إلى حفظ سرية الكتب الواردة إلى الخليفة والصادرة عنه[2].

أما ديوان البريد فكان معاوية أول من اتخذه فى الدولة الإسـلامية وفى هذا يقول ابن الأثير: إنه أول من وضع البريد، كما يذكر أن عامل معاوية على المدينة كان إذا أراد أن يـبرد بريـدا إلى معاوية أمر مناديه فنـادى: من له حاجة يكتب بها إلى أمير المؤمنين، وهذا يوضح حرص الأمويين على انضباط الأمور فى أرجاء الدولة الإسـلامية، كمـا يؤكد حرصهم علـى أن تكون علاقتهم بعمال الأقاليم علاقة وثيقة، والبريد كلمة فارسـية، وكان بالديوان خرائط توضح عليها المواقع خدمة للمسـافرين، وبه عدد من الموظفين يشرفون على إدارته.

---

(١) يقول الطبرى: كان كاتبه وصاحب سره (أى معاوية) سرجون الرومى، قبل أبى المخارق مالك مولى حمير، وكان على حرسه رجل من الموالى يقال له المختار. الطبرى. تاريخ الرسل والملوك. جـ٥ ص٣٣٠. انظر محمد كرد على. الحضارة الإسـلامية جـ٢ ص ١٥٧، ١٥٨ وقارن صبحى الصالح النظم الإسـلامية ص ٣١٤، ٣١٥.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ ٥ ص ٣٣٠، ويتفق معه ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. جـ٤ ص ١١ والسيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٢٠١.

وفـى عهد عبد الملك بن مروان شـهدت النظم الإدارية تطـورا هاما، ذلك أنه قام بتعريـب الدواوين، فعربت الدواوين بالشـام والعراق وتلا ذلـك تعريب الدواوين فى مصر، ومن المهم الإشارة إلى أن المسلمين الفاتحين أبقوا على الدواوين كما كانت تدار شئونها بلغة البلاد المفتوحة.

وظلت الدواوين تعمل كما كانت قبل الفتح فى مصر بالقبطية وفى الشـام بالرومية وفى العراق بالفارسية، وهذا يعكس حرص الدولة الإسلامية على مصالح الأقاليم حتى إذا استطاع المسلمون إدارة تلك الدواوين بأنفسهم كانت حركة التعريب.

الدواوين فى العصر العباسى

شـهدت النظم الإدارية فى عهد العباسـيين تطورا ملحوظا، وإن سارت فى بداية الأمـر على النمـط الذى كانت عليه فى عهد الأمويين، وقد سـلك العباسـيون نهج الأمويين فاستعانوا برجال أكفاء فى الإدارة، فاتخذ أبو العباس السفاح من أبى سلمة الخلال وزيرا وجعل بيده مقاليد الأمور، وخلفه خالد بن برمك الوزير الأول فى دولة بنـى العباس فبدأ ينظـم الدواوين ويجعل لها دفاتر خاصة، وهذه دون شـك خطوة إدارية غاية فى الأهمية، إذ أصبحت الدواوين تسجل كل أحوالها، وسير العمل بها وما يدخل إليها وما يخرج منها من مكاتبات أو أحوال أو شهادات.

ومـن المهـم التنويـه إلى أن العراق حظى باهتمـام كبير من الأمويـين فيما يتعلق بـالإدارة، فقـد كان فى العراق زياد بن أبيه والحجاج بن يوسـف وغيرهما من أمهر القواد والإداريين فى الدولة الإسـلامية مما سـهل عملية صقـل الإدارة فيه فى عهد بنى العباس.

وتتضـح دقـة إدارة بنى العباس فى وصية المنصور لابنـه المهدى يقول: انظر هذه المدينة، وإياك أن تسـتبدل بها غيرها، قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسـر عليك الخراج عشـر سـنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث، فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا[1].

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٦ ص ١٨.

والوصيـة تعكـس مدى أهمية الناحيـة الاقتصادية وتأثيرها علـى الحكم والدولة والرعية، كما تبين اهتمام الخليفة فى أن يكون فى خزانته فائض يكفى أرزاق الجند، وهذا يعنى أيضا اهتماما كبيرا بالجيش، وأرزاق الناس، ونفقات الشواتى والصوائف، وغير ذلك من نفقات الدولة.

ويستطرد ابن الأثير فيقول: كان للمنصور سفط فيه دفاتر علمه وعليه قفل لا يفتحه غيره، فقال للمهدى: انظر إلى هذا السـفط فاحتفظ به فإن فيه علم آبائك ما كان وما هـو كائـن إلى يوم القيامة، فإن أحزنك أمر فانظر فى الدفتر الكبير فإن أصبت فيه ما تريد، وإلا ففى الثانى والثالث حتى بلغ سـبعة، فإن ثقل عليك فالكراسـة الصغيرة فإنك واجد فيها ما تريد[1].

ووصيـة المنصـور للمهدى تقدم خلاصة تجاربه السياسـة والإدارية والعسـكرية، أودعها لمن ياتى من بعده من خلفاء المسلمين.

والمنصور هو الذى استحدث بيت مال المظالم، وكان إذا عزل عاملا أخذ ماله ووضعه فى بيت مال مسـتقل عن بيت المال العام، وكتب عليه اسـم صاحبه، إلا أنه أوصى ابنه المهدى أن يعيد هذا المال إلى أصحابه، وقد فعل المهدى ما أمره به أبوه[2].

وتتضـح الحنكـة الإدارية التى تتحرى انضباط الأمور وحماية الرعية فى سياسـة المنصور، فقد عزل صاحب شـرطته المسـيب بن زهير، وذلك لاعتدائه على ابن بشر الكاتب وضربه بالسـياط، ويبدو مدى اسـتياء الخليفة من هذا التصرف المتعنت الذى كان من نتيجته أن أوقع عليه عقوبة العزل[3].

ومـا يؤكد حرص العباسـيين علـى صقل الإدارة أن المهدى وضـع ديوانا للأزمة بمعنى أن يقوم على كل ديوان زمّام من شأنه ضبط أمور الديوان وتتبع أحواله ويشرف عليهم جميعا صاحب ديوان الأزمة[4].

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ ٦، ص ١٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ ٦، ص ١٨.

(٣) نفس المصدر جـ ٦، ص ٣٤.

(٤) الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ٦٦، ٦٧.

وكانت الدواوين مركزة فى العاصمة العباسية بغداد، ذلك أنه كان لكل إقليم ديوان فـى بغداد يدير شـئونه ويصرفها، وفى القرن الثالث الهجـرى قام الخليفة المعتضد بتغيير إدارى كبير فضم دواوين الولايات كلها وألف منها ديوانا كبيرا اطلق عليه اسم ديوان الدار أو الديوان الكبير ويشتمل على ثلاثة أقسام:

١ – ديوان المشرق ويختص بإدارة شئون المشرق.

٢ – ديوان المغرب ويختص بإدارة شئون المغرب.

٣ – ديوان السواد ويهتم بأمور العراق وإدارتها.

وكانت الدواوين فى بغداد كالتالى:

١ – ديوان الجيش :

وفيه تثبت أسماء الجنود وتقرر أعطياتهم.

٢ – ديوان النفقات :

ويعتـبر هذا الديوان من أهم دواوين الخلافة إذ يتولى الإشـراف على حاجات دار الخلافة ويتكون من عدة أقسام أو مجالس هى:

(أ) مجلس الجارى ويشرف على استحقاقات الحشم.

(ب) مجلس الأنزال ومهمته الإشراف على محاسبة التجار الذين يقيمون الوظائف من الخبز واللحم والحلوى والفاكهة.

(جـ) مجلس الكراع ويشرف على علوفة الكراع وعلاجه وأرزاق العاملين فيه.

(د) مجلس البناء والمرمة ومهمته الإشراف على البناء ومحاسبة المهندسين والزراع.

(هـ) مجلس الإنشاء والتحرير.

(و) مجلس النسخ[1].

٣ – ديوان بيت المال :

ومهمته الإشـراف على ما يـرد بغداد من الأموال، ويتم فى هـذا الديوان تحديد نفقات الدولة.

---

(١) أبو هلال العسكرى: الأوائل. انظر القلقشندى جـ ٤ ص ٣٦٦ وما بعدها.

٤ ـ ديوان البريد :

البريد لغة: مسافة مقدرة باثنى عشر ميلا، وقدرها الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال.

وعـرف بعض علماء اللغة البرد بأنـه المرتب، يقال: حمل فلان على البريد، كما تطلق لفظة بريد على الرسول الذى يحمل الرسائل.

واختلف حول لفظة بريد عربية هى أم أعجمية، فقال بعض علماء اللغة بأنها لفظة عربية، أما البعض الآخر فذكر أنه فارسى معرب، وأصله بالفارسية بريد دم، ومعناه مقصوص الذنب، وذلك لأن ملوك الفرس كانوا يميزون دواب البريد بقص أذنابها.

وقد عرفت الأنظمة الرومانية والفارسـية البريد، ثم كانت نشـأة ديوان البريد فى الإسـلام على عهد معاوية بن أبى سـفيان، فقد ذكر صاحب كتاب الأوائل: أن أول من وضعه فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان.

وكان الهدف من ذلك هو سرعة نقل أخبار البلدان الإسلامية إلى العاصمة المركزية، ويبـدو أن معاوية بن أبى سـفيان قد اسـتعان بدهاقين من الفـرس وبرجال من الروم وأخبرهم بما يريد من ربط أقاليم الدولة الإسـلامية فوضعوا هذا النظام، إلا أن هناك من يميل إلى القول بأن نشأة البريد إنما كانت على عهد عبد الملك بن مروان الذى أمر بألا يحبس صاحب البريد متى أتى إلى العاصمة، ليلا أو نهارا، واسـتمر الأمر هكذا حتى نهاية الدولة الأموية.

وقـد كان بمصر فى عصر الـولاة ديوان للبريد يقال لمتوليـه صاحب البريد وإليه مرجـع مـا يصل من دار الخلافة على أيدى أصحـاب البريد من الكتب، وهو الذى يبعـث بأخبـار مصـر إلى الخلفاء، وكان لأمـراء مصر كتاب ينشـئون عنهم الكتب والرسائل إلى الخلفاء، واستمر ذلك حتى دخل الفاطميون مصر فكان القائد جوهر هو الذى يوقع على الرسـائل والقصص حتى قدم العزيز بالله فوقع، إلى أن تولى يعقوب ابن كلس أمر الوزارة؛ فلما كانت أيام المسـتنصر، أفرد لأبى جعفر محمد بن جعفر المغربى ديوان الإنشـاء فوليه فترة طويلة حتى أيام أمير الجيوش بدر الجمالى، وصار

العلماء يتنافسون على ولاية الديوان فولية الأثير بن بنان، والموفق ابن الخلال، والقاضى الفاضل.

ويذكر القلقشندى إهمال الدولة العباسية للبريد فى بداية عهدها فى أيام السفاح والمنصور والمهدى، حيث كان البريد لا يشد له سرج، ولا تلجم له دابة، فلما تولى الرشيد أعاد اهتمام الدولة الإسلامية بالبريد؛ وذلك للاطمئنان على أقاليم الدولة والوقوف على أحوال المسلمين فيها، إضافة إلى الاطمئنان على سلامة أجناد المسلمين وأخبارهم.

ومن الجدير باللاحظة أن بنى بويه قطعوا البريد حين تولوا أمر المسلمين حتى تخفى على الخليفة الأخبار، إلا ان السلاجقة أعادوا للدولة الإسلامية البريد وأولوه عناية بالغة، وقد عين نور الدين محمود النجابة وأعدت الخيول المنتخبة لحمل البريد بين مصر والشام، وسار على النهج الملوك والسلاطين الأيوبيون والمماليك.

وقد تولى أمر ديوان البريد صاحب البريد، وقد اهتمت الدولة الإسلامية بصاحب البريد فهو الذى يصل الدولة بأطرافها، ويرسل أخبار الأقاليم على كافة أنواعها إلى الخليفة أو السلطان. ويبدو أن صاحب ديوان الإنشاء كان يجمع إلى وظيفته تلك وظيفة صاحب البريد وذلك فى عاصمة الدولة الإسلامية، ولعل ذلك كان فى مصر المملوكية، إذ يذكر القلقشندى: «أن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره فى الإيراد والإصدار»[1].

وكان للبريد ألواح من فضة مخلدة بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السر بالأبواب السلطانية، وكان باللوح كتاب تعلق به شرابة من حرير أصفر ذات بندين، يضعها البريدى فى عنقه لتظهر للناس، فإذا خرج إلى جهة من الجهات يعلم الناس أنه البريدى، ويقول القلقشندى: إنه بواسطة ذلك تذعن له أرباب المراكز بتسليم خيل البريد، ولا يزال كذلك حتى يذهب ويعود فيعيد ذلك اللوح إلى ديوان الإنشاء.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ١٤ ص٣٧٠.

وانظر المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤٠٥، حيث أورد ما أصدره الأمير صرغتمس بألا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسومه وألا تحمل بضائع على خيل البريد.

وقد أقامت الدولة الإسلامية مراكز للبريد، وهى الأماكن التى تقف فيها الخيل البريدية، وذلك للراحة أو الميرة أو تغيير فرس بفرس، وكانت تلك المراكز تختار بعناية، فعادة تكون قريبة من مراكز العمران حتى يتمكن الموكلون بالعمل فى بريد الدولة الإسلامية من أداء مهماتهم وتذليل مشقة السفر عليهم. وقد انتشرت تلك المراكز فى مصر والشام وغيرها من أقاليم الدولة الإسلامية.

واستخدم السلاطين أيضا الحمام الزاجل فى نقل الرسائل، فاستعمله الفاطميون والعباسيون والزنكيون وغيرهم؛ بل إن الخلفاء تنافسوا فى اقتناء الحمام، وارتفعت أثمانه، وبالغ التجار فى ذلك حتى وصل ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار، وقيل ألف دينار.

وكان للحمام مراكز لطيرانه، أى مطارات بالإضافة إلى مراكز البريد، وعلى أية حال كانت تلك المراكز تسهم فى ربط أجزاء الدولة الإسلامية وإرسال الأخبار وتلقيها.

وبواسطة ديوان البريد يتم ربط أجزاء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، ومن واجباته معرفة حال عمال الخراج والضياع وما يجرى عليه أمرهم، وذلك يحتم على صاحب البريد أن يأتى بأخبار الأقاليم وما يدور فيها لإبلاغها إلى الخليفة، كما يتعين على صاحب البريد أيضا أن يعرف الطرقات والمسالك، وعليه يعتمد الخليفة عند الحاجة لتسيير جيش المسلمين، وما يقدمه صاحب البريد من بيانات ومعلومات عن المسالك والطرق أمر بالغ الأهمية إذ يترتب عليه سلامة جند المسلمين وأمنهم. وكان صاحب البريد يدخل على الخليفة ولا يؤخر، وذلك لاحتمال أهمية وخطورة ما يحمل من بريد وأخبار يجب إبلاغها على الفور لولى الأمر.

ديوان التوقيع :

ومهمة هذا الديوان إعداد المسائل التى تحتاج العرض على الخليفة لأخذ رأيه فيها، وبعد الحصول على موافقته على التوقيع يمكن لصاحب الديوان التوقيع عليها، وكان صاحب ديوان التوقيع فى عهد هارون الرشيد جعفر بن يحيى البرمكى.

ديوان الرسائل وكتابة الإنشاء :

ترتبط نشأة الكتابة ببداية التاريخ المدون للإنسان وحضارته المسجلة، وتتضح أهمية الكتابة في اتخاذها بداية للتأريخ، كما يذهب إلى ذلك كثير من المدارس التاريخية، فعصر الكتابة والتدوين هو بداية العصور التاريخية.

إن توصل الإنسان القديم للكتابة يعد إحدى معجزات العقل البشرى، كما يعتبر أهم مراحل تطوره الفكرى على الإطلاق. وقد أكد القرآن الكريم على أهمية الكتابة وارتفاع شأنها باعتبار أنها العلم إذا أطلقت، فقال عز وجل: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ ﴾ [العلق]، وأقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم حين قال: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾ [القلم]، والقلم آلة الكتابة ووسيلتها، وأضاف القرآن الكريم فضلا آخر للكتابة حين جعل من الملائكة كتبة حافظين وذلك حين قال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ ﴾ [الانفطار].

واعتبرت الكتابة على مر العصور من أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة إذ إليها ينتهى الفضل وعندها تقف الرغبة كما قال المؤيد. وربما يعود ذلك إلى أن الأنبياء عليهم السلام هم الذين ابتدأوا الكتابة، كتب يوسف عليه السلام للعزيز، وكتب هارون ويوشع بن نون لموسى عليه السلام، وكتب سليمان لأبيه داود عليهما السلام، وكتب آصف بن برخيا لسليمان، أما عيسى فقد كتب له يحيى وزكريا عليهم السلام.

وقد عرف العرب قبل الإسلام الكتابة وقدروا أهميتها، فمن أقوالهم المأثورة: (من لم يكتب فيمناه يسرى)، وقالوا: (إذا لم تكتب اليد فهى رجل).

وزادت أهمية الكتابة وتأكدت العناية بها فى عصر النبوة، ومن المعروف أن النبى ﷺ اتخذ الكتاب الذين قدرتهم المصادر العربية بنيف وثلاثين، كما تمدنا المصادر المعاصرة بنصوص مراسلات النبى ﷺ مع القبائل، ومنها مراسلاته مع أهل نجران والتى كتب معظمها على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

واهتم الخلفاء والسلاطين بالكتابة حتى غدت أس الملك وعماد المملكة، فبها قامت السياسة والرياسة فى الدولة الإسلامية، كما علت أهمية الكتاب ومكانتهم فى

الدولة، فقد قال الزبير بن بكار: «الكتاب ملوك وسائر الناس سوقة»، كما قال ابن المقفع: «الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك»، وقال المؤيد: «كتاب الملوك عيونهم المبصرة وآذانهم الواعية وألسنتهم الناطقة»[1]، وقال أبو جعفر الفضل بن أحمد: «للكتاب أقرت الملوك بالفاقة والحاجة وإليهم ألقيت الأعنة والأزمة، وبهم اعتصموا فى النازلة والنكبة، وعليهم اتكلوا فى الأهل والولد والذخائر والعقد وولاة العهد وتدبير الملك، وقراع الأعداء، وتوفير الفيء، وحياطة الحريم، وحفظ الأسرار، وترتيب المراتب، ونظم الحروب»[2].

نشأة ديوان الإنشاء:

يمكن القول: إن ديوان الإنشاء من أقدم الدواوين فى الإسلام، بل هو أول ديوان وضع فى الإسلام ذلك أن الرسول ﷺ كان يكتب إلى أمرائه وقادة سراياه من الصحابة وأنهم كانوا يكاتبونه، وقد كتب للنبى ﷺ كتاب قدرتهم المصادر العربية بنيف وثلاثين منهم الصديق والفاروق وعثمان بن عفان رضى الله عنهم، كما كتب له على ابن أبى طالب وخالد بن سعيد وحنظلة بن الربيع الأسدى وثابت بن قيس وزيد بن ثابت وشرحبيل بن حسنة ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم.

وراسل النبى ﷺ جيرانه، فتحفظ لنا المصادر مراسلاته مع أهل نجران والتى كان معظمها بخط على بن أبى طالب كرم الله وجهه، كذلك كتب الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الملوك والحكام والأمراء يدعوهم إلى الإسلام وأرسل إليهم سفراءه ومبعوثيه برسائل مكتوبة فأرسل عمرو بن أمية الضمرى إلى نجاشى الحبشة، وعبد الله ابن حذافة إلى كسرى فارس، ودحية الكلبى إلى هرقل إمبراطور الروم، كما أرسل حاطب ابن أبى بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر من قبل البيزنطيين، وسليط بن عمر إلى هوذة بن على ملك اليمامة، والعلاء بن الحضرمى إلى منذر بن ساوى ملك البحرين[3].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١، ص٤٣.

(٢) نفس المصدر، جـ١، ص٤٤.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١، ص٩١. وقارن جـ ١٤ ص١٩٢.

وكتب رسول الله ﷺ العهود، من ذلك عهده إلى أهل اليمن الذى وجهه مع عمرو ابـن حزم، وصلح الحديبية الذى أملاه علـى على بن أبى طالب كرم الله وجهه كما كتب لتميم الدارى وإخوته إقطاعا بالشام[1].

ويذكـر القضاعى صاحب كتاب عيـون المعارف أن الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان لرسول الله ﷺ أموال الصدقات، وأن حذيفة بن اليمان كان يكتب له خرص النخيل، وأن المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير كانا يكتبان له المداينات والمعاملات[2].

واتخذ الخلفاء الراشـدون الكتاب، فقد كتب لأبـى بكر رضى الله عنه عثمان بن عفان وزيد بن ثابت، وكتب للفاروق رضى الله عنه زيد بن ثابت وعبد الله بن خلف، كما كتب مروان بن الحكم لعثمان بن عفان رضى الله عنه، وكتب لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه عبد الله بن رافع وسعيد بن نجران الهمدانى وكتب للحسن ابن على كاتب أبيه.

وفى الدولة الأموية ازدادت أهمية الكتابة باتساع مهام الدولة وكثرة أعباء الخليفة وتعدد مراسـلاته، وظهرت وظيفة الكتابة بشـكل أوضح، وكان ديوان الخليفة يتولى التوقيع على القصص ويصدر الأحكام والكاتب ينفذ ما يصدر إليه من الخليفة، وكان ديوان الإنشاء يفوض إلى كاتب يشرف عليه ويقوم بإدارته، واشتهر كتّاب فى الدولة الأموية من أهمهم عبد الحميد الكاتب.

تطورت الكتابة بشـكل أوسع فى العصر العباسـى، وكان ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل يضاف إلى الوزارة أحيانًا، فكان الوزير هو الذى يتولى أحوال الديوان ويصرف أموره بنفسـه، وأحيانًا كانت إدارته تـوكل إلى كاتب يختص به ويعتمد على ما يرد إليه من ديوان الوزارة.

وظلـت الكتابة فى بغداد تحتل أهمية كبيرة إلى أن بطل رسمها بسـقوط العاصمة العباسية أمام الجيوش المغولية عام ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م، أما الكتابة فى الأقاليم فقد كان لها شأن كبير وارتبط ازدهارها بازدهار ديوان الإنشاء تبعًا لعناية الحكام به.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ١، ص ٩.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الثانى، ص٩٧٧. وانظر أيضا القلقشندى. المصدر السابق جـ ١ ص ٩.

ومصر من أهم الأقاليم التى ازدهرت فيها كتابة الإنشاء وتصدر كتابها مكانة عالية فى العالم الإسلامى. وقد كان الازدهار الأول للكتابة ولديوان الإنشاء فى مصر فى العصر الطولونى، ويخبرنا القلقشندى أنه فى خلال العصر الطولونى ترتب ديوان الإنشاء وانتظم أمر الولايات والمكاتبات. وذكر أن ممن اشتهروا بالبلاغة وحسن الكتابة فى ذلك العصر أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود كاتب أحمد بن طولون[1].

واستمر حال الكتابة وأحوال الديوان فى العصر الإخشيدى على ما كان عليه فى الدولة الطولونية.

وعندما تولى الفاطميون أمر مصر بعد زوال حكم الإخشيديين وجهوا عناية بالغة واهتمامًا كبيرًا لديوان الإنشاء، واهتموا بتعيين الكتّاب المشهورين فيه، وولى لهم مجموعة من الكتاب ما بين مسلم وذمى.

وبتطور الديوان تعقدت أعماله وتعددت اختصاصاته، ووجد فيه كتاب رئيسيون يقومون بالكتابة والإنشاء وآخرون مساعدون يقومون بالتبييض والتلخيص.

ويذكر القلقشندى كتاب الفاطميين فيقول: كتب للعزيز بالله ابن المعز أبو المنصور بن سوردين النصرانى، ثم كتب أيضًا لابنه الحاكم ومات فى عهده وكتب بعده للحاكم القاضى أبو طاهر البهزكى الذى استمر يكتب حتى نهاية حكم الخليفة الحاكم والظاهر ابنه.

وكتب ولى الدين بن خيران للخليفة المستنصر، ثم كتب للآمر والحافظ الشيخ أبو الحسن على بن أسامة الحلبى ومن بعده ولده أبو المكارم الذى توفى أيام الحافظ، ثم كتب بعده الموفق بن الخلال والقاضى الفاضل الذى استمر يكتب بعد انتهاء حكم الفواطم فى مصر.

وازدادت أهمية الكتابة وأهمية ديوان الإنشاء فى عصر الأيوبيين وخاصة فى عصر الملك الناصر صلاح الدين، وربما ارتبط بازدياد أهمية القاضى الفاضل وعلو مرتبته فى مصر، فمن المعروف أنه تولى الوزارة وناب عن صلاح الدين وظل يرأس ديوان الإنشاء حتى توفى بالقاهرة.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ١، ص ٩٥.

وفـى عصر العادل الأيوبى كتب القاضى أمين الدين سـليمان الذى عرف بكاتب الدرج حتى وفاته فكتب بعده الشيخ أمين الدين عبد المحسن الحلبى، وكان صاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان آخر كتاب الإنشاء فى العصر الأيوبى.

ولم تقـل أهميـة ديوان الإنشـاء فى عصر المماليـك عما كانت عليـه فى العصور السـابقة، بل أولى السـلاطين المماليك عنايتهم للديوان، وأناطـوا وظائفه إلى القضاة والكتاب الأكفاء.

وكان ديـوان الإنشـاء فى العصـر المملوكى بجوار قاعة الصاحـب بقلعة الجبل، يجلس فيه كاتب السـر وحوله موقع الدرج وموقعو الدسـت، يتلقون الكتب الواردة مـن السـلطان، وكان المقريزى الـذى يصف لنا كل هذا قد باشـر التوقيع وذلك عام ٧٧٠هـ/١٣٦٨م، وذلك للقاضى بدر الدين محمد بن فضل الله العمرى.

وتعـرض ديوان الإنشـاء للإهمال بـأن بيعث محتوياته بالقناطـير وذلك فى عهد الظاهر برقوق.

وكانت كتابة الإنشـاء قد اسـتقر أمرها فى عهد الناصر محمد بن قلاوون، وكان يتولاها صاحب ديوان الإنشـاء أو كاتب السـر، وكان يطلق عليه أحيانًا ناظر ديوان الإنشاء، وله تصريف المراسيم ورودًا وصدورًا، وله الجلوس بين يدى القاضى فى دار العـدل لقراءة القصص والتوقيـع عليها فى المجلس، ويذكر المقريزى كانت العادة أن يجلس صاحب الديوان فى مرتبة أدنى من الوزير فلما تمكن بعض كتاب السر ومنهم القاضى فتح الدين فتح الله ارتفعت مكانته فصارت أعلى من مرتبة الوزير.

موظفو ديوان الإنشاء :

كان الخلفاء المسـلمون يعنون عناية بالغة بانتقاء أصحاب ديوان الإنشاء، انطلاقًا مـن خطورة ذلـك المنصب وارتباطه بالمصالح الحيوية للخلافـة والدولة والرعية. فإلى صاحب الديوان يلقى الملوك والحكام بأسـرار الدولة وأسـرارهم ويضعون ثقتهم فيه؛ فكان عين السلطان التى ترى مملكته، وقلبه الذى يحس بنبض رعيته[1].

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ١، ص١٩٣.

وقد ذكر ابن الطوير: أن منصب صاحب الديوان فى الدولة الفاطمية كان يناط بالأفاضل والأجلاء من القضاة، وكان يخاطب بالأجل، وإليه ترد المكاتبات مختومة فيعرضها على الخليفة.

ويروى القلقشندى: ومرتبته فى زماننا أرفع مرتبة ومحله أعظم محل، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها، وبرأيه يستضاء فى مشكلاتها، وعلى تدبيره يعول فى مهماتها، وإليه ترد المكاتبات، وعنه تصدر، وفى ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعه على القصص فى نفوذ الأوامر مقام السلطان، وجميع ما يعلم عليه السلطان من جليل وحقير فى مزرته حتى ما يكتب من ديوان الجيش من المناشير وما يكتب من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرهما من الربعات ونحوها[1].

وأهمية ديوان الإنشاء تؤكد ضرورة وجود عدد من الموظفين الأكفاء لإدارة أحواله والسهر على ترتيب شئونه إنطلاقًا من المسئوليات الكثيرة المنوطة به.

وينقسم العاملون فى ديوان الإنشاء إلى:

أولاً: الكتاب، وعددهم سبعة.

١ – كاتب ينشىء ما يكتب من المكاتبات والولايات، وكان يتولى هذا العمل فى بعض الأحيان صاحب الديوان نفسه.

٢ – كاتب ينشئ مكاتبات الملك عن ملكه.

٣ – كاتب يكتب مكاتبات أهل الدولة من كبرائها وولاتها وقضاتها.

٤ – كاتب يكتب المناشير والكتب.

٥ – كاتب يبيض ما يكتبه المنشئ.

٦ – كاتب يتصفح ما يكتب فى الديوان.

٧ – كاتب يكتب التذاكر والدفاتر لمتعلقات الديوان.

ثانيًا: صاحب الديوان، ومهمته تنظيم الدخول إلى الديوان.

ثالثًا: خازن الديوان، وعليه تقع مسئولية بالغة الخطورة وهى الحفاظ على أسرار الديوان.

---

(١) انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ١، ص١٠٢.

وفى العصر المملوكى أصبح ترتيب الموظفين فى ديوان الإنشاء كالتالى:

١ – صاحب الديوان أو كاتم السر.

٢ – كتاب الدست.

٣ – كتاب الدرج.

٤ – الأعوان.

أما صاحب الديوان فهو كاتب السر أو كاتم السر، وأحيانًا كان كاتب السر يلازم صاحب الديوان، وقد تعدد كتاب السر فى العصر المملوكى حتى تجاوز عددهم العشرين.

وفيما يتعلق بكتاب الدست فقد سموا بذلك لجلوسهم إلى جوار دست السلطان، ويذكر ابن الطوير أن بداية ظهور ذلك الاصطلاح كان فى الدولة الفاطمية[1].

وكان كتاب الدست يسمون أحيانًا بالموقعين، فقد كان من حقهم التوقيع مثل صاحب الديوان أو كاتب السر.

أما كتاب الدرج فهم الذين يكتبون ما يوقع كاتب السر أو كتاب الدست أو غير ذلك، وسموا كتاب الدرج لكتابتهم الكتب بأنواعها فى دروج الورق، ودروج الورق هى الورق المكون من عدة أوصال، وقد زاد عددهم فى العصر المملوكى حتى بلغوا مائة وثلاثين كاتبًا.

وكان للديوان أعوان يقومون بجمع القصص والمكاتبات وإدارتها على كاتب السر ومن دونه من الكتاب لانهاء تلك المعاملات.

اختصاصات وصلاحيات رئيس الديوان:

يتولى صاحب الديوان مهام جليلة الشأن فى الدولة، وتعددت صلاحياته واختصاصاته لتشمل:

١ – التوقيع والتعيين، وذلك يتصل بالتوقيع على القصص والظلامات والرقاع والتعيين والعزل، وكان التوقيع فى بداية الأمر من صلاحيات الخلفاء ثم أصبح من مهام صاحب الديوان.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ١، ص١٠٣.

٢ – النظر فى الكتب الواردة عليه.

٣ – رد الأجوبة على الكتب الواردة عليه.

٤ – النظر فى تنسيق المكاتبات والولايات كما تذكر المصادر فى مراتبها من الافتتاح والدعاء والألقاب وقطع الورق وما إلى ذلك.

٥ – مراجعة ما يخرج من الديوان قبل خروجه منه.

٦ – النظر فى البريد.

٧ – النظر فى أمر العيون والجواسيس.

٨ – النظر فى الأمور العامة.

ويضاف إلى هذه الأمور السابقة أربعة أمور وهى:

١ – النظر فى أمر الرافضة (الفداوية).

٢ – النظر فى أمر القصاد وهم المبعوثون الرسميون من قبل الدولة أو السعاة الذين يوجهون إلى النواحى والبلدان يحملون الهدايا والخلع إلى حيث يوجهون.

٣ – النظر فى أمر أبراج الحمام.

٤ – النظر فى أمر المناور والمحرقات.

وهذه الأمور الأربعة كانت من مهام الديوان فى وقت خاص، فالأمر الأول كان عند اشتداد نفوذ الشيعة وتشجيع الدولة لهم وخاصة فى العصر الفاطمى.

وأما الأمران الثانى والثالث فيرتبطان بالبريد وتقوية أواصر العلاقة بين الحكومة المركزية والأقاليم، بالإضافة إلى تقوية الروابط بين الدولة الإسلامية وجيرانها.

وأما الأمر الرابع فيرتبط بالعصر المملوكى ومواجهة مصر للخطر المغولى الزاحف من الشرق. فقد أقام المماليك مركزًا لتلك المناور فى بلبيس واتبعوها بمراكز أخرى حتى بلاد الشام. فإذا ما حل خطر وخاصة فى الليل يقوم المكلفون بهذا العمل بإشعال النيران على رءوس الجبال فيراها من بعدهم فيشعل النيران وهكذا حتى يصل الجند إلى بلبيس ومن هناك يتم الاتصال بالقاهرة فتجهز النجدة اللازمة.

وأما المحرقات فهو أسلوب من أساليب محاربة العدو، فقد كان المسلمون يقومون بربط الخرق المبللة بالزيت فى أذناب الثعالب ويشعلون فيها النيران ثم يطلقونها فى مزارع العدو فيدمرون زروعهم، وهذا ما يعرف الآن بالحرب البيولوجية.

وكلف بهذه الأعمال أقوام مقيمون فى تلك المناطق بجوار العدو ولهم رزق جار وإقطاعات من السلطان[1].

كتابة الإنشاء:

تطلق الكتابة أحيانًا على كتابة الإنشاء، كما أن اصطلاح الكاتب إذا أطلق أريد به كاتب الإنشاء.

وفى العصور المتأخرة فى مصر أطلقت الكتابة على كتابة المال، وأطلق اسم الكاتب على كاتب الأموال[2].

ويروى القلقشندى أن صناعة الإنشاء أو الكتابة فى عصره صار لها اسمان: الأول عام يتلفظ به العامة، وهو التوقيع، والثانى خاص يستعمله أهل الديوان وهو كتابة الإنشاء.

ويقول المقريزى: اعلم أن كتابة الديوان على ثلاثة أقسام، كتابة الجيوش وكتابة الخراج وكتابة الإنشاء والمكاتبات، ولابد لكل دولة من استعمال هذه الأقسام الثلاثة[3].

ومهما تعددت أنواع الكتابة وأقسامها فهى لا تخرج عن أصلين: الأول كتابة الإنشاء، والثانى كتابة الأموال.

وكتابة الإنشاء تعنى كل ما يتعلق بصناعة الكتابة، وكاتب الإنشاء يكتب للسلطان أو ولى الأمر المكاتبات والولايات والمسامحات والإطلاقات ومناشير الاقطاعات والهدن والأمانات والأيمان.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ١، ص ٢٨.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ١، ص ٥٤.

(٣) المقريزى الخطط جـ١ ص ٩١.

أمـا كتابة الأموال فتختص بتسـجيل ما يرد إلى بيت المال والخزائن السـلطانية والمنصرف والنفقات، ولكل نوع من الكتابة خطره وأهميته، إلا أن كتابة الإنشـاء قد رجحت كفتها وارتفعت منزلتها وعلا شـأنها، ذلك أن الكاتب يحتاج إلى علم غزير ودراية بفنون اللغة وآدابها.

وقد ذكر الحريرى مفخرة بين كتابتى الإنشـاء والأموال، فقال على لسان أبى زيد السروجى:

اعلموا أن كتابة الإنشـاء أرفع وصناعة الحسـاب أنفع وقلم المكاتبة خاطب وقلم المحاسبة حاطب، وأساطير البلاغة تنسخ لتدرس ودساتير الحسابات تنسخ وتدرس، والمنشئ جهينـة الأخبار وحقيبة الأسـرار ونجى العظماء وكبير الندماء وقلم لسـان الدولة وفارس الجولة ولقمان الحكمة وترجمان الهمة، وهو البشـير والنذير والشـفيع والسـفير، به تسـتخلص الصياصى وتملك النواصى ويقتاد العاصى ويستدنى القاصى وصاحبه برىء من التبعات آمن من كيد السـعايات مقرظ بين الجماعات غير معرض لنظم الجماعات[1].

مؤهلات كاتب الإنشاء:

تذكر المصادر شروطا كثيرة لا يجب أن تتوفر فيمن يقوم على مهمة كتابة الإنشاء، فإذا كان من كتاب سر السلطان فيجب أن يكون مسلمًا كما يجب أن يكون من حفظة القرآن الكريم وأن يكون عالمًا بأحاديث النبى ﷺ.

ويجب أن يكون كاتب الإنشـاء عالمًا بالفقـه وأحكامه وباللغة العربية وفنونها من بلاغـة وبيـان وبديع بالإضافة إلى إتقان النحو والصرف، كما يجب أن يكون الكاتب عارفًـا للغات أخرى غير العربية كالفارسـية والتركية والروميـة والقرنجية والبربرية وغيرها.

وكل هذا مما يعين الكاتب على تأدية عمله بإتقان ويسـاعده على سـرعة إجابة متطلبات الحكم والسياسة بالإضافة إلى شئون الدولة الداخلية والخارجية.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ١، ص٥٦.

وقـد تمتع الكتاب بمكانة جليلة فى الدولة الإسـلامية علـى كافة عصورها. فهم حفظة أسـرار الدولة وهم ألصق الناس بالملوك والسـلاطين والحكام وهم الصلة بينهم وبين الرعية.

وتتضـح أهمية هـذا الديوان من النصوص التاريخية، فصاحـب الديوان له مرتبة عظيمة فى الدولة، فإليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها، وبرأيه يستضاء فى مشكلاتها وعلـى تدبيره يعـول فى مهماتها، وإليه ترد المكاتبـات وعنه تصدر، وهو دون غيره الذى يسـتطيع أخذ علامة السـلطان، إذا ليس فى سلطات صاحب ديوان الجيش أو الوزارة الخاص أو غيرها القيام بذلك[1].

(١) من ألقاب صاحب الديوان: كاتب الدست، وكاتب الدرج، وكاتب السر، وتطورت هذه الألقاب واختلفت مدلولاتها على مر العصور. انظر القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ١، ص ١: ١، ٣: ١ وما بعدها.